أ. د طه حبيشي

الحاوي

لمعاني وأسرار

قواعد عقيدة الطحاوي

الكتاب الاول

رقم الايداع
٢٠٢١ -٢٥٢٢
الترقيم الدولي
978-977-449-506-8

« إن السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع »

أبو الطيب المتنبي

مقدمة المصنف

قال المصنف العلامة حجة الإسلام أبو جعفر الوراق الطحاوي بمصر رحمه الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

[الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله أجمعين : هذا ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة ، علىٰ مذهب فقهاء الملة : أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين ، وما يعتقدونه من أصول الدين ، ويدينون به لرب العالمين .

قال الإمام : وبه قال الإمامان المذكوران رحمهما الله تعالىٰ] .

مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور/ جمال عفيفي

الأستاذ المتفرغ بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة

ورئيس قسم العقيدة والفلسفة الأسبق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومَن تَبِعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإنَّ من أعظم النِّعَم التي مَنَّ اللهُ بها على بني الإنسان أن هداهم إلى معرفةِ الدِّين؛ لأنَّ الناس لو لم يهتدوا إلى الدِّين لعاشوا في حياة أقرب ما تكون إلى حياة الغاب؛ حيثُ يأكلُ القويُّ فيها الضَّعيفَ؛ لأن حاجات الإنسان متعدِّدة، وقُوَى البشر متفاوتة، والإنسان يحتاج أن يعيش مع غيره من بني جنسه، فهو ـ كما يقول المفكِّرون ـ مدنيٌّ بطبعه، كما أن الإنسان دائم التطلُّع إلى ما في أيدي الغير، فلا بد له من وجود نظام يُنَظِّم علاقته بالآخرين، وهذا النِّظامُ يجب أن يخضع له الجميع؛ ليحقِّق العدل لكل الناس، دون محاباة لجنس على باقي الأجناس، وهذا لا يتحقَّق إلا من خلال الدِّين الذي هو من عند خالق البشر الذي يعلمُ ما يُصلِحُ أحوالهم.

ويُضافُ إلى ذلك أنَّ الدِّين أمرٌ فِطري مركوز في فطرة الإنسان، من حيث كونُه إنسانًا، ومما يؤكِّدُ ذلك أنَّ كثيرًا من العُلماء قالوا عن الإنسان: إنه حيوانٌ متديِّن.

ومما هو جدير بالذِّكر أنَّ الدِّين من حيثُ هو دينٌ يشتمِل على جانبَين أساسِيَّيْنِ، هُما: العقيدةُ والشَّريعةُ.

أمَّا العقيدة: فهي الأساس الذي يقوم عليه بناء الدين، وهي الأصل الذي ينبع منه الدين، ولذلك أطلق العلماء على العلم الذي يهتم بدراستها اسم (علم أصول الدين).

والعقيدة ثابتة عند جميع الأنبياء والمرسلين، فهي تشتمل على: الإيمان بالله،

والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقَدَر خيرِه وشَرِّه.

أما الشَّريعةُ: فهي تتعلَّق بفروعِ الدِّين؛ كالعِبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية، وغيرها من الموضوعات التي يقوم بدراستها علمُ الفقه، وهي تتغيَّر علىٰ حسب اختلاف الأحوال، فتختلف من رسول إلىٰ رسول.

ولكن يجب أن نلاحظ أن العقيدة إذا كانت هي أصلَ الدين فإن بناء الدين كله يعتمد عليها، ولقد وعىٰ المسلمون منذ أوائل عصر الدعوة الإسلامية أهميةَ العقيدة، فحرصوا عليها، وكانوا يأخذونها صافية من القرآن والسنة في عصر الرسول ﷺ، وفي عصر أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ قبل أن يختلط المسلمون بغيرهم من أصحاب الديانات الأخرىٰ، وفي هذه الفترة لم يُدَوِّن العلماء كتبًا في علم العقيدة، بل كانوا يأخذونها صافية من الرسول ﷺ ومن كبار علماء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ولكننا نلاحظ أن المسلمين بعد أن اتَّسَعَتِ الفتوحات الإسلامية، واختلط المسلمون بغيرهم؛ احتاجوا إلىٰ تدوين العلوم المختلفة، ومنها علم العقيدة.

وهنا يجب أن نلاحظ أن علماء العقيدة من المسلمين حين أرادوا أن يُدَوِّنُوا مسائل هذا العلم تعدَّدتْ مناهجهم في تناوُل قضاياه، فقام بعضهم بكتابة مؤلَّفات مختصرة تتناول قضايا هذا العلم تناولًا مباشرًا ومُبَسَّطًا دون أن يخلطوه بغيره من العلوم، بينما قام البعض الآخر من المصنِّفين بخلط قضايا العقيدة بمسائل الفلسفة، علىٰ نحو ما فعله صاحب كتاب «المواقف» عضد الدين الإيجي.

ولكننا نجد أن التصنيف في قضايا العقيدة علىٰ الطريقة المختصرة كان هو الغالب في أول عصور التصنيف في هذا العلم، أما الكتب المطوَّلة فقد ظهرت في فترة متأخِّرة.

ولعل من أهم المصنَّفات التي ظهرت في مرحلة الكتب المختصرة رسالة صغيرة قام بتصنيفها الإمام أبو جعفر الطحاوي، وهو عالم مصري من قُدامَىٰ

العلماء الذين صنَّفوا في علم العقيدة.

ويجب أن نعلم أن هذه الرسالة التي صنَّفها أبو جعفر الطحاوي علىٰ الرغم من صِغَر حجمها إلا أنها قد اشتملت علىٰ العقائد الصحيحة الصافية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

ولقد تناول فيها الشيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قضايا العقيدة المتعلِّقة بالإيمان بالله، وكتبه، ورسله، والملائكة، واليوم الآخر، والقَدَر خيرِه وشَرِّه، حُلْوِه ومُرِّه.

ولقد امتاز تناوُل الشيخ لقضايا العقيدة بالبساطة والسهولة، وعدم الدخول في معضلات علم العقيدة علىٰ نحو ما أحدثه المؤلِّفون في فترات لاحقة في مؤلَّفاتهم التىٰ تناولت قضايا علم الكلام تناولًا مفصَّلًا، فيه خَلْطٌ بين قضايا علم العقيدة وقضايا الفلسفة.

وعلىٰ الرغم من بساطة وسهولة الرسالة التي وضعها الإمام الطحاوي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ إلا أنها قد تناولت قضايا العقيدة الإسلامية التي يجب علينا أن نؤمن بها تناولًا شاملًا، وكذلك يجب أن نلاحظ أن هذه الرسالة علىٰ الرغم من صِغَر حجمها إلا أنها كانت مَحَلَّ اهتمام كثير من العلماء الذين قاموا بشرحها؛ إما شرحًا مختصرًا، أو شرحًا مُطَوَّلًا، ولم يقتصر الأمر علىٰ ذلك، بل إننا نلاحظ أن بعض هؤلاء الشُّرَّاح أرادوا أن يوجِّهوا شروحهم لهذه الرسالة لخدمة أفكار ومذاهب خاصة، ومن ذلك ما فعله من يسمون أنفسهم بالسلفية، وهم أبعد ما يكونون عن السلف ـ رضوان الله عليهم ـ؛ حيث أراد هؤلاء الأدعياء أن يشرحوا تلك الرسالة بما يتوافق مع مذهبهم وفكرهم المنغلق الذي يجعل الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في جهةٍ ومكان، ويجعلونه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مشابِهًا للحوادث، ويزعم هؤلاء في شروحهم أن الإمام الطحاوي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ هو إمامهم الذي يقتدون به، فحاوَلوا تشويه تلك الرسالة الصافية بأفكارهم وبشروحهم المزعومة.

ولكن علماء الأشاعرة والماتريدية -أصحاب المذهب الوسطي في العقيدة- قد وضعوا شُروحًا على تلك الرسالة تؤكِّد خطأ هؤلاء المحرِّفين، وتُبيِّن أن تلك الرسالة التي وضعها الإمام الطحاويُّ - رحمه الله تعالىٰ - هي رسالة تتوافَق مع المنهجِ الوسَطيِّ في عرض قضايا العقيدةِ الإسلامية، وهذا المنهج يتوافَقُ مع ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

ولقد تتابعت جهود علماء الأشاعرة والماتريدية في تناوُل تلك الرسالة، ومحاولة استخراج كنوزها، ولعل من أبرز العلماء الذين تعرَّضوا لاستخراج كنوز هذه الرسالة فضيلة الأستاذ الدكتور/ طه الدسوقي حبيشي، الذي شَحَذَ هِمَّتَهُ لاستخراج كنوز تلك الرسالة، فقام بإبراز أهم قواعد العقيدة الإسلامية التي اشتملت عليها تلك الرسالة، فقام بعرض هذه العقيدة كما وردت عند الشيخ في رسالته، ثم أخذ يُحَلِّل هذه القواعد تحليلًا علميًّا دقيقًا.

كما عرض آراء علماء العقيدة، وقام بتحليل تلك الآراء تحليلًا مباشرًا دقيقًا يجمع بين الدقة والشمول.

كما قام فضيلتُه بمناقشة أصحاب الأفكار غير الصحيحة، الذين أرادوا أن يفهموا تلك القواعد بطريقتهم الخاصة لتدعيم مذاهبهم غير الصحيحة، فعرض أفكارهم، وحلَّلها وناقشها، وألزم أصحابَها الحُجَّةَ، وبَيَّنَ لهم طريق الحق الواضح بموضوعية ودقة علمية.

ومن هنا فقد استطاع فضيلتُه أن يستخرج قواعد العقيدة التي اشتملت عليها تلك الرسالة، بأسلوب يجمع بين العمق والشمول في مركبٍ علميٍّ دقيق، وهو يحاول في شرحه أن يأخذ بيد القارئ إلىٰ الفهم الصحيح والدقيق لقضايا العقيدة.

ومن هنا فإننا ندعو الله - سبحانه وتعالىٰ - أن يجازي فضيلة الأستاذ الدكتور/ طه الدسوقي حبيشي خير الجزاء علىٰ ما قَدَّمَه في شرحه لهذه الرسالة من عمق

ومناقشة، وندعو الله أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناته يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم.

أ.د/ جمال عفيفي

١٨ ربيع الأول ١٤٤١هـ

١٥ نوفمبر ٢٠١٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقالة الأولى

توطئة وتمهيدات

الحمد لله الحميد المجيد، الذي له صفات الكمال، وكلُّ موجودٍ غايته الرجوع إليه، فهو المرجع والمآل.

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله، صاحب الحوض المورود، وله اللواء المعقود، والشفاعة العظمىٰ، والمناقب الكبرىٰ، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه، ومَن تَبِعَهُم بإحسان إلىٰ يوم الدين، أما بعد:

فإن مِن خصائص الإنسان أنه إذا انشغل بقضيَّةٍ فكريَّةٍ، وكان أهلًا للنظر فيها، أَنَضَّتْ مضجعَه، وأخذت عليه حياتَه من جميع أقطارها، فلم يكن أمامه إلا أن يَبْسُطَ يدَ عرضها للناس، وهو يجتهد في عرضه لها، بحيث لا يختزن من جهدٍ يستطيعه في عرضها شيئًا.

فإذا ما انتهىٰ من بسط اليد بها، وبذل الجهد في تقديمها، والتقط بعد أن قدَّمها الأنفاسَ، عاد إلىٰ النظر فيما قدَّمه يتأمَّله، فإذا به يرىٰ أن ما قدَّمه للناس، وبذل فيه أقصىٰ الجهد؛ ليس فيه مَقْنَع يُقنِعه، وليس فيه من الكمال ما يرضيه، فيعود مرة أخرىٰ ليقرأ في هذه المسألة التي شغلته وألَحَّتْ عليه، وحملته علىٰ بَذْل الجهد في عرضها للناس، فيعالجها من جديد، ويعرضها عرضًا يبتغي له أن يكون كاملًا، فيضيف إليه من تجاربه الجديدة ما يرىٰ أنه يوضحه ويقوِّيه، ويمنحه من خلاصة قراءاته وتأمُّلاته ما يرىٰ أنه كان في مَسِيس الحاجة إليه، ثم ينتهي من عرضه ـ مبسوطًا أو مختصرًا ـ إلىٰ ما يظن أنه قد بلغ بهذا العرض الجديد غاية الكمال، فيغتبط غاية الاغتباط بما قد تصوَّره، فيأخذ مكانه علىٰ أريكته، ويتنفَّس الصُّعَدَاء مغتبِطًا بما قد انتهىٰ إليه.

فإذا ما أخذ قسطه من الراحة، وحَظَّه من الاغتباط؛ عاد من جديد يَرْجِعُ البصرَ الكَرَّةَ بعد الكَرَّةِ متأملًا فيما عرضه وسُرَّ به، فإذا به يكتشف أنه غير راضٍ عما قدَّمه للناس وعرضه للغير، وأنه بسروره وغِبْطَتِه لم يكن مُحقًّا في سروره، ولم يكن على صواب في غبطته، فيعود من جديد يقرأ ويتأمَّل فيما يخدم قضيته، ويعود من جديد يمارس ويجرِّب ما يمكن له أن يمارسه أو يجرِّبه، وبعد ذلك يعود إلى قضيته، فيعرضها من جديد، يُكمل ما قد رآه ناقصًا، ويُسدِّد من الأهداف ما يرى أنه قد فاته أو أخطأه في رَمْيِه السابق.

ويظل المنشغِل بقضيته يعرضها بما يرى أنه قد أجاد في عرضه، ثم يجد بعد انتهائه من العرض أن ما عرضه يحتاج إلى إعادة نظر.

ويظل الباحث هكذا منشغلًا بقضيته، وبعرضها على الآخرين طَوالَ حياته؛ يعرضها فلا يقتنع بعرضه، فيعود إلى عرضها من جديد، وهكذا دَوالَيْك، إلى أن يتهي به الأجل، ويعود إلى ربه وهو على قناعةٍ بأنه لم يَحْسِم قضيته، ولا يكون عنده من تعليل لذلك إلا أن يكون معتقدًا أن الكمال لله وحده، وأن العصمة للوحي السماوي في مجال الأفكار، وأن العصمة للأنبياء في مجال الأشخاص، ولا عصمة لغير الوحي، ولا عصمة لغير الأنبياء، ولا كمال إلا لله.

أكتب هذه السطور وأنا في خريف العمر، قد جمعتُ إليَّ أشيائي، وحزمت حقائبي، لعلِّي أعتزم الرحيل.

أكتب هذه السطور بعد أن عقدت العزم على أن أعود من جديد لأكتب في قضايا علم الكلام وموضوعات العقيدة، وقد كتبت فيها أكثر من مرة، وأصدرت فيها أكثر من نشرة، لكني لم أجد نفسي قد بلغت فيما كتبت أو نشرت الكمالَ المطلق، ولا الكمال النسبي؛ إذ الكمال المطلق لله، والكمال النسبي للأنبياء والرسل، وأنا بعيد [redacted] وذاك.

سأحاول أن أكتب مرة أخرى في قضايا علم الكلام، مع رغبةٍ عارمةٍ في الإجادة، لكنني مع ذلك لا أرغب في بلوغ الكمال المطلق؛ إذ الرغبة في الكمال المطلق من المخلوقين حماقة، كما أنني مع ذلك لا أرغب في بلوغ الكمال النسبي، فإن بلوغ الكمال النسبي لغير الأنبياء أمرٌ متعذِّر، بل متعسِّر، وادِّعاءُ بلوغه لغير الأنبياء إنما هو ادِّعاءٌ يُعْوِزُه الدليلُ، وتحصيله أمرٌ بعيد المنال.

وسأُملي هذه السطور مُستعينًا بالله، ومَن وقعتْ هذه السطور بين يديه لنا عليه حق، وهو أن يُصلِح ما رآه خطأً، وأن يُكمِّل ما رأى فيه نقصًا، وأن يستر على الكاتب في خطأٍ ارتكبه عن غير قصدٍ منه، وأظهر اللهُ القارئَ عليه، وليعلم أنه مأجور في الحالتين.

وأنا لا أملك له إلا أن أقول: جزاك الله عنا وعن العلم خير الجزاء.

أ.د/ طه حبيشي

التفكير في العقيدة والإمكانات الفكرية للمكلّف

خلق الله الإنسان في الكون متميزًا بين سائر المخلوقات؛ فهو وإن كان يشاركه بعض المخلوقات في عنصرَيِ الحياة وما لها من خواصّ، إلا أنه ينفرد عنها بدرجة تُمَيِّزه وترقىٰ به.

ولعل هذه الدرجة التي يمتاز الإنسان بها، ولعل هذه الرتبة التي تعلو بها حياته فوق سائر الحيوات إنما هي هذه الرتبة وتلك الدرجة المتمثِّلة في التفكير والكائنة في قدرة الإنسان علىٰ النظر في الأشياء، والتأمل فيما ينظر فيه.

ودرجة التفكير التي امتاز بها الإنسان هي التي ميَّزت نوعه من بين سائر الأنواع التي تشاطره الجنس الأدنىٰ، والذي هو جنس الحيوان.

ولأن الإنسان متميِّز بالقدرة علىٰ النظر والتأمُّل فيما ينظر فيه، وترتيب محصِّلة نظره وتأمُّله في مركب صاعد يصل بصاحبه إلىٰ نوال النتائج وقطف الثمرة من هذا المركب؛ وجدنا الذين يكتبون عن الإنسان ويؤرِّخون له يعتبرون التفكير فصلًا مميزًا ذاتيًّا يفصل بين الإنسان وبين سائر الموجودات الأخرىٰ ـ خاصة الحية منها ـ في أهم الخواص التي تُمَيِّز بين الكائنات.

وهؤلاء المؤرِّخون لنوع الإنسان يسمون عنصر التفكير هذا باسم له مكانته في عالم الدلالات، ويتخذون له لقبًا له رتبته علىٰ درج السمو والكمال.

وهذا اللقب الذي اختاروه، ووضعوه بإزاء هذا العنصر الذاتي المميِّز لنوع الإنسان هو: الناطق، فقالوا في تعريفهم لنوع الإنسان بأنه هو: الحيوان الناطق، فإذا كان «الحيوان» قد وُضِع لقبًا للجنس العام، فإن «الناطق» قد وُضِع لقبًا للفصل الذي امتاز به نوع الإنسان.

وإذا أردنا أن نفهم شيئًا يمتاز بصفة التبسيط والبسط لما انتهينا إليه مما قلناه؛

فإننا نقول: إن الله الخالق المصوِّر الذي عَلَّم الإنسان ما لم يعلم، قد خلق الإنسان علىٰ الجملة وفيه غريزة حب الاستطلاع، وأنه لا يحب أن يقف سلبيًّا أمام ظاهر الأشياء، أو أمام ما يُخْفِيه هذا الظاهر من أسرار، فيبحث في ظاهره، ويُنَقِّب خلف هذا الظاهر؛ ليعرف ما يُخْفِيه من سر، ولذا وجدناهم يقولون عن الإنسان بأنه «طُلَعة»، والطُّلَعةُ هو هذا الكائن الذي تُلِحُّ عليه طبيعته أن يعمد إلىٰ المُرَكَّبِ الذي تتناوله يداه ويقع في مجال الرؤية منه فيُفَكِّكه إلىٰ أبسط أجزائه، ثم يعود بهذه الأجزاء بعد اختبارها فيركِّبها من جديد بعد أن تَكُونَ أسرارُ هذا المركَّبْ قد حَسَرَتْ عنها سِتْرَها، وكشفتْ ثيابها حتىٰ أصبحت سافرةً لا غموض فيها.

وموجودٌ تلك طبيعتُه لا بد أن يكون قد مُنِح مِنْ خالقِه صفاتٍ وخواصَّ لها هذه القدرة التي تُعِين هذا المخلوق علىٰ التحليل والتفكيك والتأمل فيما يحلِّله ويُفكِّكه، وأخذ ما يريد منه، ثم يعيده إلىٰ ما كان عليه أولًا من التركيب الذي يمنحه هيئته واستقامته.

ومَن يتأمَّل في هذا المخلوق العجيب يجد أنه قد مُنِحَ من الله هذه الخواص، ولكن بأقدار مختلفة تظهر نتائجها وآثارها حين يتصدَّىٰ هذا المخلوق للمركَّب يُفكِّكه، وللمُجَزَّأ يتأمَّله، ويكشف أسراره، ثم يعود به إلىٰ وَضْعه الأول.

والقرآن الكريم يرسم صورة هذه الأقدارِ التي يتقسَّمها هذا المخلوقُ المتميِّزُ في صورةٍ بديعةٍ حين يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

عجيبٌ منهج القرآن في عرضه لقضاياه.

وهو هنا في عرضه لمفهوم الذين يستمعون القرآن يرسم أمامنا صورتين يُقَرِّبان [redacted] في صورة محسوسة إلىٰ الفهم والتعقل.

- **والأُولىٰ من هاتين الصورتين:** يُشبهها القرآن بماءٍ نزل من السماء، فسالت له أوديةٌ، وتفتَّحت به عقول، ولكنها عقولٌ تفاوتت قُدراتها، فاحتمل السيل زَبَدًا رابيًا، فاستقبلت العقولُ الزَّبَد وما يحمله من الماء الطَّهُور، فأما الزَّبَد والأفكار الهَشَّة المُضَلِّلة فقد ذهبت جُفَاءً، وأما ما ينفع الناس فقد مكث في الأرض واستقرَّ في الركود.

تلك صورةٌ ضربها الله مثلًا يوضِّح الفكرة، وقد ختم عرضها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

- **والثانية من هاتين الصورتين:** ما يعمد إليه الإنسان ـ المتميز ـ بالاختلاف إلىٰ بعض المعادن النفيسة يستخرجها من الأرض وسط أخلاط وأمشاج، فيذهب به إلىٰ البَوْتَقات، فيضعها فيها، ثم يوقد عليها النار حتىٰ تنصهر، وحين تنصهر هذه المعادن يمتاز في المنصهَر الغَثُّ من السمين، والأصيلُ من الدخيل.

والغث والدخيلُ كلاهما يمثِّلان في هذه الصورة التمثيلية الزَّبَد الذي لا ينفع، والفَضْلَة التي لا تفيد.

أما السمين والأصيل فهما يمثِّلان في هذه الصورة التمثيلية أو التقريبية المعدِنَ الصافي الذي يبتغيه الإنسان الحِرَفِيُّ، فيتخذ منه حِلْيَةً أو متاعًا، هكذا تؤتي هذه الصورة والتي قبلها الثمرةَ المَرْجُوَّة منهما، وهي ثمرة تفتح بها المجال إلىٰ طريق يوصلنا إلىٰ فهم نعمة التفكير أو النطق لدىٰ الإنسان.

وهذا ما نحاول أن نقول فيه الآن كلمة.

خلق الله الإنسان المكلَّف، ومَيَّزَه بما مَيَّزَه به، فارتقىٰ بمميزاته فوق الكائنات من جمادٍ ونباتٍ وحيوان.

ثم هيَّأه الذي خلقه علىٰ هذا النحو من التهيئة ليكون مكلَّفًا بالاختيار، من بين جميع الكائنات التي تهيَّأت للعبودية، لكن علىٰ غير أساس الاختيار، علىٰ نحو

ما حكىٰ القرآن الكريم في أكثر من آية، وفي أكثر من مكانٍ منه، وهي متفرِّقات قد جمع أصلها قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

وعلىٰ هذه الصفة التي تُهيِّئ الإنسان لأداء وظيفته علىٰ الأرض، صار الإنسان وقد تحقَّق له وجوده الطبيعي والتاريخي علىٰ هذه الأرض، بعد أن كان مشروعًا عَرَضَهُ الله علىٰ الملائكة حيث أراد أن يخبرهم به قبل أن يُوجِده، ويُبيِّن لهم خواصَّه ومميِّزاته، علىٰ نحو ما جاء في أكثر من سورة من القرآن، وهو مجيء تتقدَّمه قصة بَدْء خَلْق الإنسان في سورة البقرة، وفي مطلعها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ومرورًا بمرحلة الإعداد من خلال التعليم والتجربة والخطأ، وهي أمورٌ قد تلقَّاها آدم وحواء في الجنة قبل أن يَهْبِطَا إلىٰ الأرض.

وفي فترة الإعداد كانت حوائج آدم وحواء مقضية علىٰ غير الأسباب، علىٰ نحو ما قال الله مُمْتِنًّا علىٰ آدم ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

ووسوس الشيطان لآدم كما وسوس لها، وأغراه من طريق الضغط علىٰ الغريزة علىٰ نحو ما أغراه به؛ ليكون ذلك سببًا مباشرًا لهبوط آدم وحواء إلىٰ الأرض، التي ما خُلِقَا إلا لتعميرها ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] و: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

نزل آدم وحواء إلىٰ الأرض، وهي بيئة مختلفة المناخ والتضاريس، وعليه أن

يعالج حياته فيها مع اختلاف المناخ والتضاريس.

والنوع البشري الذي هَيَّأ الله أفراده وجماعته للخلافة على الأرض لم يجد صعوبة في التعايش مع البيئة رغم اختلافها، وهو لم يجد صعوبة في التعايش مع التضاريس رغم تنوُّعها، يُعِينه على ذلك هذه التهيئة التي طبعه الله عليها، على نحو ما قال في: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

لم يجد النوع البشري صعوبةً في تعايشِه مع البيئة، ولا في تعايشِه مع التضاريس.

وكان عليه أن يتعامل مع البيئة والتضاريس، يُصلِحهما من ناحية، ويستخرج منهما رزقه من ناحية أخرى.

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ حين خَلَقَ هذا النوع البشري على هذه الحال من التهيئة لم يتخذ منه مُعِينًا له ـ وحاشاه ـ، وإنما هو قد خلقه لوظيفته، يتعامل مع الأسباب ليوفِّر عناصر وجوده التي وضعها الله له في الأرض، وهي أسباب قد تعرَّف عليها في فترة تدريبه في الجنة، فهو من خلالها يجب أن يدفع عنه الجوع والعُرِيَّ والظمأ ونقلُبات المناخ، وما لها من أثرٍ تمثِّله الحرارة والبرودة والعَرَاء.

ومع وضوح الغرض من وظيفته على الأرض، والذي بيَّنه الله في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦: ٥٨]، وهو كلامٌ هُنا يُضاف إلى ما ذكرناه قبل، وفي مجمله مسئولية الإنسان عن البيئة في جانبها الماديِّ؛ للحفاظ على سلامتها من ناحية، ولاصطناع الأسباب لاستخراج الرزق منها من ناحية أخرى.

ومع تكاثُرِ الإنسانِ وتناسُلِه فقد انقسمت بجماعته الأوطان.

وتَبيَّن للإنسان أفرادًا وجماعات أنَّ الله قد خلقَه للاجتماع؛ فكانَ مدنيًّا بطبعِه، اجتماعيًّا في أصلِ فِطرتِه، وهذا الاجتماع إنما يحتاج إلى التكافُل والتَّسانُد وتوزيع الأعباء، وهي أمورٌ كلها تحتاج إلى نظام من خلال شريعة يُكلَّف بها هذا المخلوق

الجديد.

وهذا النظام وتلك الشريعة هي نفسها الدائرة علىٰ محور المسئولية والإلزام التي تحدَّثَتْ عنها آية الأحزاب، والتي أشرنا إليها سلفًا.

والالتزام بهذه الشريعة التي تحقِّق التكافل، وتضمن التساند، وترعىٰ توزيع الأعباء، إنما هو نوعٌ من العبادة، يُضاف إلىٰ ما ذكرناه من رعاية البيئة، واصطناع الأسباب فيها، فتتكامل من خلالهما وظيفة الإنسان الخليفة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، و ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إن الإنسان بحكم مَدَنِيَّته التي تتطلَّب الألفة، وبحكم أنه اجتماعي، واجتماعيَّته تتطلَّب التساند، وتوزيع الأعباء، وتبادُل السلع، إن الإنسان علىٰ الأرض، وبحكم ذلك كله فيه؛ يحتاج إلىٰ شريعة تنظم له أموره.

والشريعة لا تقوم إلا علىٰ ركيزة من العقيدة، أو أساسٍ من الأيديولوجية.

والعقيدة والشريعة جميعًا يحتاجان إلىٰ مُقَعِّد ومُشَرِّع، وهذه أمورٌ تقرب من البدهيات.

والإنسان الخليفة حين توزَّعَتْه الأرض، وانقسمت به البيئة والتضاريس، قد وجد نفسه في حالة من الاضطرار تُلجِئه إلىٰ البحث عن عقيدة بمثابة القاعدة، يؤسِّس حياته عليها، وهي تُلْجِئه إلىٰ البحث عن شريعة هي بمثابة الإطار الذي يحيط بمصالحه، أو الحَكَمَة التي تنظِّم حركته.

وما مِن عاقل إلا وهو يعلم أنَّ الإنسانَ الخليفة عن الله في الأرض إنَّما هو مُضطر للبَحثِ عن العقيدةِ التي تُمثِّلُ القاعدة، وللبَحثِ عن الشَّريعة التي تمثِّل الإطار والحكمة.

إنَّ الإنسانَ العاقِل يعلم علم اليقين أن العقيدة بالنسبة له تُمثِّل الأمن الداخلي،